هذه التسعينات... بعده

وعدني بها، وائتمنني عليها.

وعدني بالكتابة لـ"النهار"، وائتمنني على مقالاته فيها.

وبدأت سلسلة "تسعينات نقولا زيادة"، مقالاً بعد مقال، فبلغت أربعين.

قبل اسابيع اعطاني دفعة منها وقال لي: "تظل تنشرها حتى 2 كانون الاول 2007، وهو نهار عيد ميلادي المئة، ثم تصدرها في كتاب، وتكتب لها مقدمة تروي فيها هذا الامر".

ظهر أمس، ونحن نودعه الى مثواه الاخير، كانت عيني على تابوته الذاهب به الى عتمة القبر، وكان تفكيري في المقالات الباقية عندي ولم أرسلها بعد لـ"النهار".

لا ادري كم من المقالات كان سيكتب بعد، لو مد به عمره الى المئة، الى 2 كانون الاول 2007.

غير انني سأفي بالتزامي معه، مثلما هو التزم معي بالكتابة لـ"النهار". وسأواصل نشر هذه الـ"تسعينات" تباعاً، حتى اذا انتهت، عمدت الى اصدارها في كتاب اكتب له مقدمته، وأروي فيها ما ائتمنني عليه.

وفاءً لذكراه، الكبير نقولا زيادة، الذي انطفأ بصمت وودعناه امس بصمت، اواصل نشر هذه التسعينات تباعاً في صفحة الـ"مدنيات"، ومع كل مقال جديد، غصة جديدة على كونه لم يحقق حلمه بأن يبلغ المئة.

هـ. ز.

تسعينات نقولا زيادة - 41

تلك المواسم الدينية في فلسطين

لما استرد صلاح الدين القدس من الصليبيين (سنة 1187) خشي تجمع المسيحيين في اسبوع الفصح مستذكرين صلب المسيح وقيامته وصعوده الى السماء. وكان يقصد القدس، في ذاك الاسبوع، آلاف الحجاج المسيحيين الاوروبيين. خشي ان يكون وجودهم ذاك الاسبوع في القدس حافزاً لاحتلال المدينة مجدداً، فأنشأ في الاسبوع ذاته "موسم النبي موسى" لاستذكار النبي موسى. وفي الاساطير (كما في العهد القديم) لم يدخل موسى ارض فلسطين بل دفن في جبل نيبو (قرب مادبا في الاردن)، لكن التقليد نقل القبر الى مكان قريب من أريحا فلسطين.

هكذا اخذ المسلمون في "موسم النبي موسى" يلتمون في القدس من كل انحاء البلاد، حتى اصبح الامر تقليداً يقصده بالمئات "وفد الجنوب" (أو "وفد الخليل" لان مدينة الخليل كانت اكبر مدينة فلسطينية جنوب القدس، وكانت مدينة مقدسة)، و"وفد الشمال" (من نابلس او "وفد جبل النار" لأن جبال طولكرم نابلس كانت تسمى عند العامة "جبل النار")، و"وفد اللد والرملة" (الجزء الساحلي من يافا واللد والرملة). وكانت هذه الوفود تتقاطر الى القدس بأهازيجها وأغانيها المحلية الخاصة لا بالدفوف والطبول بل تصفيقاً بالايدي مع الاناشيد، تجتمع دفعة واحدة في فصل الربيع متعبة قاطعة مشياً مسافات طويلة، لكن اصواتها تبقى عالية وتردد في ارجاء القدس.

قيض لي ان احضر تلك "المواسم" وأنا طالب لدى دار المعلمين في القدس (1922 – 1923) فسمعت انشودة اذكرها حتى اليوم فيها مقطعان، الاول: "قاصدينك يا محمد"، والآخر: "سيف الدين الحاج امين" (اي الحاج امين الحسيني مفتي القدس ورئيس المجلس الشرعي الاسلامي الاعلى). وكان المنشدون من "الجبهة الشعبية" انصار الحاج امين او "المجلسيين" واسمهم الرسمي "الحزب العربي الفلسطيني" رئيسه جمال الحسيني ورئيسه الاعلى الروحي هو الحاج امين الذي نال كل ذاك الولاء لأنه كان ماهراً في اللعبة السياسية، وانتخب رئيس المجلس الشرعي الاسلامي الاعلى بعد اقناع منافسه الشيخ حسام الدين جار الله بالانسحاب مقابل تعيينه مفتشاً عاماً للغة العربية والدين الاسلامي في كل مدارس فلسطين الحكومية.

أهمية الحاج امين رئيساً للمجلس الاسلامي الشرعي الاعلى ان كل موظف في اي مسجد فلسطيني (من الامام الى اصغر موظف) كان يعينه المجلس، وكل قاض شرعي تعينه حكومة فلسطين موظفاً كانت تلزمه موافقة هذا المجلس الذي كان مسؤولاً عن كل الاوقاف الاسلامية، وهي كانت تدر أرباحاً هائلة. فأوقاف الخليل الاسلامية مثلاً بلغ مدخولها السنة 1923 وحدها 17000 جنيه فلسطيني. ما اهمية هذا المبلغ؟ الجواب في ما يأتي: كان ولداي رائد وباسم يسألانني (1955 – 1956) ما قيمة الـ"شلن" ايامذاك؟ قلت انه كان يعادل خمسة قروش (اي جزءاً من عشرين من الجنيه = 100 قرش). ولم يكن في فلسطين "شلن" بل عملة فضية او نحاسية من قروش، انما كنا نذكر الشلن لاننا كنا تحت حكم الانكليز. وكان الشلن الواحد في عكا يبتاع 25 بيضة، ما يعني ان مدخول الأوقاف الاسلامية عهدئذ كان عالياً جداً. وكان المجلس الشرعي الاسلامي الاعلى يعنى بتعليم العرب في فلسطين لان مدارس الحكومة البريطانية كانت قليلة ولم تصل في المدن الى المرحلة الثانوية. لذا قام المجلس الشرعي الاسلامي الاعلى بانشاء كلية اسلامية اخذت تخرج ضالعين في التعليم الشرعي الاساسي مع بعض العلوم الاخرى ليتمكنوا من تزويد المحاكم الشرعية كتاباً ومحاسبين قد يتقدمون اكثر فيصبحون قضاة شرع. وكان احرى بالمجلس ان يؤسس كلية عامة توصل الى البكالوريا لأن حكومة فلسطين لم تنشئ كلية عامة حتى 1948. فالكلية العربية في القدس كان فيها سنتان فقط من التعليم العالي بعد الثانوي، اي كان طلابها يحتاجون الى سنتين اخريين للحصول على ما يعادل البكالوريوس، وهو ما اغفله المجلس الشرعي الاسلامي الاعلى.

هذا النفوذ للمجلس ورئيسه كان يبرر تلك التحيات الاهزوجية من الوفود: "سيف الدين الحاج امين" او "قاصدينك يا محمد". وكانت تلك الوفود تجتمع في القدس تخليداً لذكرى صلاح الدين الذي راحت غايته الاولى تفقد قيمتها مع الوقت انما بقي "الموسم" قائماً بشعائره الدينية: يصلي المؤمنون في الحرم الشريف (المسجد الاقصى) وحوله، ثم يذهبون في "زفّة" اخرى الى زيارة قبر النبي موسى، ثم يعودون الى القدس. وكان قصد صلاح الدين من ذلك اظهاره للفرنج قوة اسلامية مستعدة لصدهم لو فكروا في اي هجوم لاسترداد القدس. ومع الوقت اصبحت الظاهرة موسماً دينياً اجتماعياً حتى بلغت في عشرينات القرن العشرين تظاهرات سياسية لاظهار نفوذ الحاج امين في وجه خصومه السياسيين (جماعة راغب النشاشيبي) فكان هؤلاء "المعارضين" وكانت جماعة الحاج امين "المجلسيين".

كان هذا من المواسم المهمة في فلسطين، بل اكبرها واضخمها عدداً واعلاها صوتاً.

انما كان ايضاً سواه، كـ"موسم النبي روبين" (في الساحل)، و"موسم النمل" ومواسم اخرى في الشمال. وفي الناصرة كانت مواسم "عيد العذراء" بنت الناصرة، و"اسبوع الآلام" (في جبل طابور او جبل الطور القريب منها). وكانت مواسم دينية ذات طابع محلي لم تبلغ مواسم الشمال ولا مواسم الساحل عدداً ولا صوتاً ولا دعوة ودعاية كما بلغت "مواسم النبي موسى".

واذكر انني في احد تلك المواسم كنت محمولاً على كتفي احدهم فجاء من ينزع عن رأسي البرنيطة ليضع عليها لفته وعمامته. ثم دخلنا المسجد ونحن "نؤيد فلسطين" و"نطرد اليهود" بكلام مرتفع واصوات ظلت ضجيجاً لم يترك اثراً ولا "طرد" احداً من اليهود.